القسم الأول
حضارات الشرق الأدنى والأمبراطورية

obeikandl.com

obeikandl.com

في هذه الرقعة الواسعة من الأرض التي يصطلحون اليوم على تسميتها بالشرق الادنى ، برزت وازدهرت اقدم حضارتين بين الحضارات التي قامت على مقربة من حوض البحر المتوسط . ففي مصر وبلاد ما بين النهرين ظهرت اولى السلطنات العظيمة التي تستأثر بانتباهنا للمجهود البشري العظيم الذي بذلته .

العوامل التي ساعدت على هذا النجاح في مصر وما بين النهرين .

والسبق الذي حققه الانسان في هذه البلدان على امثاله في الاقطار الاخرى اذ كان نهجهم في العيش من قبل نهجاً واحداً سوياً، يجب رده في الدرجة الاولى الى حلم الطبيعة والاحوال الجوية فيها . فكلا البلدين يتألف سواده من سهول فساح ووديان ظليلة يؤمن لها المناخ الحرارة اللازمة كما يردفها بالرفء والخصب انهار غزيرة . وهكذا في قلب منطقة صحراوية جرداء ، بعض فيافيها من اخشن ما قام من امثالها في الارض ، توفرت الشروط المؤاتية لبروز واحتين لا اوسع منها ولا اخصب تقع احداهما على شواطىء البحر الابيض المتوسط كما تطل الثانية على مشارف هذا البحر .

وراح الانسان في هذه البقاع البارّة يتلمس طريقه وينمي خبراته مكتسباً مهارات جديدة في استثمار هذه الاراضي الخيّرة . مهمة ظاهرها هيّن يسير بينما يخفي الواقع صعوبات كأداء لا تلين . ففي الحين الذي كان يحاول فيه الانسان استنباط تكنيكه الزراعي وتحسين عدته وادوات عمله كان عليه ان يهيمن على المياه وان يتفادى منها الطغيان والنقصان ، وان يردأ عنه خطر المستنقعات وهجوم الصحراء عن طريق اقامة شبكة من اقنية الصرف والترع اللازمة للسقي ليحقق من هذا كله سيطرته الكاملة على الارض واستثمار خيراتها الطائلة ، على منهجية واصول .

فامام مهمة بهذا الشمول وبمثل هذه الجسامة كان لا بد لجهود الفرد من ان تصاب بالعجز ويبوء سعيه ومحاولاته بالفشل ، فيقصر عن تحقيق اي شيء نافع له ولغيره من بني جنسه لو لم يتكتل مع غيره وينتظم من جماعات لها كيانها السياسي والاجتماعي ولها القدرة والسلطات الكافية لتنسيق الدروس وتحقيق المشروعات الموضوعة واستثمارها على وجه يعود بالنفع على المجتمع . وبالفعل فقد كان بحاجة ماسة الى زعماء وقادة يتمتعون بالسلطة والاحترام اللازمين .

فضرورة القيام بمثل هذه المهمة السامية والنفع الذي تعود به على الجميع ليسا من الحقائق التي تبرز للعين بروز واجب الدفاع عن الوطن من اعتداءات المعتدين . ومن جهة اخرى فالحرب

وضع طارىء وحالة حادثة تمر وتنقضي ، بينما إعداد الارض للزراعة عملية يجب معاودتها كل سنة وإتيانها من جديد عاماً بعد عام بعد ادخال التحسينات عليها. فلكي يستطيع القادة اصدار الاوامر في هذا المجال وانتزاع الطاعة ، يجب ان يتمتعوا بسلطة قوية تنطلق من مجموعة من التعاليم والعقائد الدينية التي تحتم على الانسان الطاعة التامة والخضوع الكامل والتسليم المطلق ، ان لم يكن تفاني الفرد المطلق وانسكابه في مجهود مشترك نظيم .

سر هذا النجاح

هنالك ثلاثة عوامل تضافرت وتفاعلت معاً فأدت الى هذا النجاح ، هي : الظروف الطبيعية المؤاتية فيخدمة ادارة جماعية يشدها الى الدين روابط وثيقة متينة . ولكن كيف تم للعاملين الانسانيين الاخيرين الظهور وكيف تم لهما مثل هذا الانتشار والشيوع واكتسبا مثل هذا الحول والطول ؟ هنا السر الكامن الذي لا يمكن ادراكه والنفاذ اليه ، اذ ان نشأة الدين وطلوع الفكرة الدينية ، لا يأتلفان بشيء مع التسليم بفكرة المنفعة المادية . والاخذ بهذا التسليم يعجز عن تبرير هذا الرضوخ المستمر ، من قبل جماعات تعمل تحت الاكراه والضغط .

ومما يزيد هذا السر اغلاقاً واطباقاً ، وبالتالي اثراً في النفس هو اننا امام ظاهرتين لا ظاهرة واحدة وامام نشأة حضارتين متعاصرتين تقريباً. فالحضارة المصرية وأختها الحضارة البابلية نفسها، شارفتا على التمام وتمت لهما الخصائص المفردة ، بضعة قرون قبل اواخر الالف الرابع قبل الميلاد اي حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م ، بحيث يستحيل على المؤرخ اليوم ان يقطع في من منهما سبق الاخرى للظهور .

ولو فرضنا وقام دليل قاطع على اسبقية احداهما للاخرى ، تعذر القطع ايضاً على الباحث في من منهما تأثر بالاخرى ونهج نهجها واحتذى حذوها . فبين الحضارتين اكثر من خاصة واكثر من ميزة مشتركة . ولكن ، في النظام العقائدي الذي ارتضته كل منهما ، وفي الانظمة السياسية الاجتماعية التي عملتا بها ، قامت مفارقات اساسية جذرية تجلت كذلك في العلاقات التي شدّت الدين الى السلطة الشرعية . والنتائج العملية التي أدت اليها المناهج والاساليب التقنية التي استخدمت هنا وهنالك في استثمار الارض ، هي متشابهة ان لم نقل واحدة. ولكن اذا ما نظرنا الى مظاهر الحياة الاقتصادية نفسها رأيناها تتلبس اشكالاً والواناً هي في مصر غيرها في بلاد ما بين النهرين . فنحن امام حضارتين اصيلتين نشأتا الواحدة بمعزل عن الاخرى ، ودون نقل او نسخ الواحدة منهما للاخرى ، مع بعض اقتباسات طفيفة . ولكل من هاتين الحضارتين فجرها الخاص وضحاها المميز ، وكلاهما يستدعي تبنّي مئات الألوف من الناس واقتباسهم لمجموعة من العقائد والمذاهب ، ذات فعالية مدهشة كان اثرها قبل التجربة غامضاً مجهولاً ، يصعب تحديده او تبيانه ، صحّت اساساً وطيداً لهذه الحضارة ، ونقطة انطلاق لها نحو الظهور فالتجلي فالازدهار .

اهلية الشرق الادنى للسيطرة والسؤدد

وهذه الحضارات الفرعونية والبابلية التي يكتنف الغموض نشأتها المبكرة ويلفّ كينونتها لفاً ، عرفت ، بما تمّ لها من موارد طبيعية هائلة ورفد كريم ، وبما امتازت به في الداخل من تماسك وتراصٍ زادتها النجاحات التي سجلتها والتفوق الذي حققته قوة ومتانة ، ان تكفل للشعوب التي قامت عليها ونهضت بها ، تفوقاً ساحقاً على ما حولها من امم مجاورة وطوائف دارت في فلكها . فقد تم لهذين القطرين منذ الفجر الباكر وسائل ساعدتها على الفتوحات العريضة وبسط سيطرتها بعيداً .

وهذا السلطان جاء استعماله واستخدامه عندهما على غير استواء . فالحاجة للمزيد من الطمأنينة عن طريق تدويخ المزيد من الشعوب المجاورة ، الفينة بعد الفينة كانت اكثر غِبّاً لدى المصريين منها لدى البابليين . وهكذا يبدو لنا ، بعيداً عن كل نظرة سيكولوجية ، ان « شهدة السيطرة » التي وُصِمَت بها هذه الحضارات ، لا تلازم تاريخ مصر الفرعونية بصورة مستمرة . ومع ذلك فقد اضطرت مصر ، بدافع من موقعها الجغرافي ، لتحقيق وحدتها في الداخل ولمراقبة الصحاري المحيطة بها من الشرق والغرب ، على السواء تفادياً للمفاجآت المزعجة ومنعاً لكل طارق طارىء ، بحيث تستطيع الانصراف للاستمتاع بدعة الوادي وبخيراته الوافرة . ومهما يكن ، فقد اضطرتها ظروفها الخاصة ووضعها الجغرافي لان تصبح وتبقى دوماً ، من الوجهة الجغرافية والاسكانية ، دولة كبيرة واحدة موحدة ، بالرغم مما تم لها من صروف وظروف .

فللشرق الادنى ميزة خاصة لا يشاركه بها قطر من اقطار حوض البحر المتوسط ، وهي ان حدوث الحضارات الكبرى لا يلبث ان يعقبه ، بعد فترة قصيرة ، طلوع امبراطوريات عريضة . فاذا ما نظرنا الى هاتين الميزتين مستقلتين او في إطار التاريخ العام ، رأينا ان ليس بينهما شيء من الترابط والتداعي ، اذ اننا نلاحظ في غير مكان ، او في ازمنة تاريخية اخرى ، طلوع حضارات ضخمة تزدهر ، بالرغم مما يتخللها من انقسامات سياسية . وعلى عكس ذلك تماماً ، هنالك امبراطوريات واسعة تقوم وتستمر في الوجود بالرغم مما هي عليه من تخلف في تطورها . فهذا التوافق والتزامل الزمني يبقى ابداً من مواصفات الشرق الادنى المميزة .

وهذا التوافق ليس حدثاً عارضاً ، بل جاء نتيجة منطقية . ففي هذه الحقب الموغلة في التاريخ ، جاء مجهود السكان المشترك ، في حقلي الحضارة والتكونات الجغرافية ، سبباً وعلة في آن واحد . ومن جهة أخرى ، عندما تأخذ شمس هذه الحضارات والامبراطوريات بالغروب تترك وراءها شيئاً مما كان في الاصل ضرورة عضوية لها .

فالشرق الادنى عرف ان يحافظ ، مع توالي الاجيال ومر القرون ، على قسمات صورته الاولى . ومن جهة ثانية ، نرى الانطلاق الحر للفرد امراً عسيراً . فمن وجهة عدد السكان الاجمالي او من جهة كثافة السكان ، لم يكن لوحدة الدولة ، من الناحية المادية كبير اهمية . كذلك امر

الفرد من الناحية الادبية ، اذ كثيراً ما كان يضيع بين غمر الجماهير . وكل شيء يشير الى ان الضغط الذي كانت الجماهير تحدثه من الخارج ، كان اكثر من كافٍ ليعيق انفتاح الشخصية وبروزها . من العسير ان نتصور كيف لا يؤول التجنيد في سبيل نفع مشترك كالشغل والحرب ذباً عن الوطن الى التجنيد العقلي والادبي معاً . ومن جهة اخرى ، كانت هذه المنطقة منطقة الشرق الادنى ، ابداً ودوماً الارض المختارة او الارض المدعوة لاطلاع الممالك الكبيرة . يبدو ان قادة هذه الشعوب لم يستطيعوا مقاومة ما للافق المديد من سحر وفتنة ، فوقعوا تحت تأثير هذه الآفاق صرعى اغرائها وفعلها الاخّاذ ، وقاموا يذرعون مشارق الارض ومغاربها طولاً وعرضاً ، ويقطعون مضايق البحار وبرازخها ، تحقيقاً منهم لحلم راودهم بفتح مبين . وهكذا نرى الامبراطورية الايرانية التي آلت اليها تركة امبراطوريات بابل ومصر ، تحاول بدورها بلوغ ما لم تبلغه سابقاتها من قبل .

وهكذا نرى الحضارات الامبراطورية الكبرى الثلاث : الفرعونية والبابلية والايرانية التي توارثت الشرق تباعاً ، قديماً ، تنتصب ، بما لها وفيها من نزعات عريقة اصيلة، وجهاً لوجه امام مدنيات دقت رقعتها الجغرافية وتواصفت خططها السياسية. وهكذا نرى ثلاث مدنيات كبرى تبسط سرادقها على الملايين من البشر تنتصب وجهاً لوجه امام مدنيات تركت للجهد الفردي حرية اكبر واوسع . ففي الصورة الكبيرة التي رسمنا ، كما هي الحال في كل صورة مكبرة ، لا بد من التحفظ في ما تبدّى عليها من فوارق . الا انها في جملتها وفي خططها الكبرى تبدي الواقع المجرد .